

النار في الأرض المقدسة.. نبوءات هيكل

الكاتب



عبدالله السناوي

راح يتذكر ذلك اليوم من شهر مارس (آذار) عام 1948 عندما دلف إلى «أخبار اليوم»، وكل من قابله يخبره بأن الأستاذ مصطفى أمين يسأل من وقت لآخر عما إذا كان وصل الجريدة

ما إن أطل عليه بادره: «أين أنت.. النقراشي باشا يطلب أن يراك الآن». حامت تصورات وتوقعات وتساؤلات، غير أن ما جرى لم يرد في تصور، أو توقع.. فقد كان رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي مشغولاً بما يجري في فلسطين، وأراد أن يستقصي الحقائق من الصحفي الشاب العائد توأً من مسارحها الملتهبة

«سأل مستفهماً عن المستعمرات اليهودية وما رآه من استعدادات للحرب كان قد وصفها بأنها «نذر شر

وسأل متشككاً إذا ما كان صحيحاً أنه شاهد بنفسه في إحدى المستعمرات «أكثر من ستين مدرعة» على ما روى في «سلسلة تحقيقاته «النار في الأرض المقدسة

لم يكن رئيس الحكومة مقتنعاً بما قرأ وسمع: «أنت يا ابني الكلام ده جبته منين؟».. «أنت تبالغ فيما تقول والأمور! ليست بالخطورة التي تتحدث عنها

لم تكن مصر قررت دخول الحرب.. والرجل الذي أرسلت قواته إلى فلسطين بعد أسابيع قليلة يتصور أن ما قرأه وسمعه مبالغات صحفي في الرابعة والعشرين من عمره يصوغ مشاهداته بتوابل إثارة تتطلبها مهنته

هكذا وفرت له التغطية الميدانية الإلمام بحقائق الموقف والقدرة على التنبؤ بما سوف يحدث لاحقاً

منذ ذلك الوقت المبكر استقرت في كتاباته قضية فلسطين، قبل أي قضية أخرى، من «النار في الأرض المقدسة» إلى

«العروش والجيش» عن يوميات حرب (1948) بالوثائق الرسمية على جزأين إلى «المفاوضات السرية» في ثلاثة أجزاء، وقد كانت الأكثر مبيعاً في تاريخ الكتب السياسية العربية

لمرة أخرى استعاد الأستاذ محمد حسنين هيكل بعض المشاعر، التي تملكته أثناء تغطيته لحرب فلسطين، وهو يوجّه «رسالة عبر صحيفة «العربي» للشيخ «رائد صلاح»، الذي يطلق عليه «شيخ الأقصى

إن الأقصى معنى كبير قبل أن يكون معلماً خالداً بالنسبة لنا جميعاً، فهو الحُسنان معاً، إذا جازت الاستعارة، فهو» تاريخ القداسة، وهو قداسة التاريخ، الأقصى إلى جانب ذلك كله ماثل دائماً في حياتي، فالله وحده يعلم عدد المرات التي جئت فيها إلى رحابه قادماً عن طريق الخان الأحمر، وهو الطريق المؤدي من أريحا إلى القدس داخلًا من باب رأس العامود، ماشياً من حواري خان الزيت على الطريق الواصل إليه، مصلياً فيه وماشياً منه إلى كنيسة القيامة داعياً، ثم خارجاً لكي أعطي وقائع الأحداث من سنة 1947 إلى سنة 1948 - وكاتباً في كل ما نشرت بأنها النار في الأرض المقدسة، غير أن القضية تتعدى أي شخص وأي مؤتمرات صحفية قد يعقدها، فللكلمات طاقتها وحدودها، التي لا تستطيع تجاوزها إذا لم تستند إلى موقف سياسي شعبي واسع من داخل الأرض المحتلة نفسها، فقد شاءت الأقدار أن «يتحملوا هم- قبل غيرهم وفي مقدمة الصفوف عبء الدفاع عن المسجد الأقصى

بعد أقل من ثمانية أعوام على رحيله في (17) فبراير (2016) تأكدت مجدداً وبأقوى صورة رمزية الأقصى في الصراع العربي الإسرائيلي.

«لم تكن مصادفة أن تحمل عملية السابع من أكتوبر اسم «طوفان الأقصى

تحمل الفلسطينيون وحدهم، كما توقع وتنبأ، عبء الدفاع عن المسجد الأقصى، وتكاليف إحياء القضية الفلسطينية، التي جرى الظن أنها ذهبت إلى النسيان

الذاكرة أقوى سلاح في الدفاع عن القضايا العادلة

وقد كان دوره جوهرياً في إحياء الذاكرة وتوثيق الصراع على المنطقة، وفلسطين في قلبها

لا يوجد شيء في الأدبيات المتاحة عن الشرق الأوسط الحديث يقارن بسرده المحكم المفصل عما حدث أثناء حربي» «1976 و1973 إلى ما قبل أوسلو

كتاب المفاوضات السرية أفضل من مئات الأطروحات المتخصصة في الشرق الأوسط، على أقل تقدير، يمكنك أن تعرف من خلال ذلك الكتاب أن عملية السلام حققت ٩٠٪ من مطالب طرف و١٠٪ من مطالب طرف آخر، وأن ذلك «سوف يؤدي لصدمة مستقبلية

«هكذا كتب الدكتور إدوارد سعيد في صحيفة «الغارديان» البريطانية عام (1996) تحت عنوان «المراقب المستقل

بصورة أو أخرى فإن «هيكل» و«سعيد» تشاركا، كلٌ بطريقته ومن موقعه، في كشف حقيقة أوسلو وعملية السلام كلها.

لم يكن ذلك رجماً بالغيب. النبوءات السياسية تكتسب صدقيتها من ملازمة الواقع بلا تزيف وقراءة الحسابات

.والتوازنات والمصالح ونصوص الاتفاقيات وما خلفها دون أوهام

كانت قد مضت سنوات طويلة وقاسية على اليوم الذي خط فيه باسم الرئيس جمال عبدالناصر مطلع ستينات القرن الماضي في رسالة شهيرة إلى الرئيس الأمريكي جون كيندي: «من لا يملك أعطى وعداً لمن لا يستحق.. ثم استطاع». «الاثنان من لا يملك ومن لا يستحق بالقوة والخديعة أن يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه فيما يملك وفيما يستحق. بدت تلك إشارة بليغة لوعد «بلفور»، الذي أسس لصراع امتد لثلاثة أرباع القرن حتى وصلنا إلى حرب الإبادة في غزة

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024